

فكاهات

رقائق

عواقب الغدر (١)

١

في اليوم الثامن من شهر ايلول سنة ١٨٥٥ استولت جنود الدولة العلية وفرنسا وانكلترا واليامون على مدينة سبستبول بعد حصار شديد وحرب عوان دامت نحو سنة وانسحب الروسيون متشتتين تحت كل كوكب . ولم يكن الليل الذي عقب القتال بأقل هولاً منه فقد تلا دوي المدافع هزيم الرعود وعصف الرياح والزوابع وكأن الروسيين ابوا الا ان يقتفوا آثار اجدادهم في موسكو فاضرموا النار في جوانب المدينة فلم تبقى ولم تذر وبذلك اكملوا تخريب ما عجزت القنابل عن تخريبه في مدة احد عشر شهراً ولم يتركوا للمتصرين سوى معالم دارسة ورسوم طامسة

وكان الجنود قد نهكهم التعب ومالت اعناقهم من الكرى فتوسد بعضهم الحجارة وبات آخرون لا يطمئن جنبهم الى مضجع فاخذوا في المسامرة والحديث وفيما هم يتناقلون حوادث نهارهم وقد كادت تلوح طلائع الفجر اذا برجل يسير الى جهة المعسكر الفرنسي فعرفه احدهم فقال هذا هو الضابط مالوري . ووقف الضابط هنيهة يدير نظره فيما حوله من اشلاء القتلى وعلى يمينه معسكر الجنود المتحالفة وعلى يساره فريضة سبستبول وبينهما المدينة التي تحالف الحديد والنار على تخريبها فادرك من اول لمحة ان الروسيين لم تعد تقوم لهم قائمة فتغير وجهه واتقبض ثم ضرب الارض برجله وقال اف لي وتباً لشقائي فهذه الحرب قد انتقضت وانتقضت معها

(١) ملخصة عن الفرنسية بقلم سليم افندي العقاد

آمالى وساعود عنها كما اتيت لم ابلغ رتبة ولم احظ بوسام ان هذا لما تعض عليه
الانامل حسرة وغيظاً ويشهد الله لولا حليمة لي وابنة تركتها على احر من الجمر
لاستقلت في الحال . وفيما هو على ذلك اذ تراءى له شبح يتسلل في الظلام فاسرع
اليه فاذا هو رجل روسي من رعاع الشعب فاخذ الضابط بتلايبه وصاح به من
انت . فارتعدت فرائص الرجل فرقا وقال رحمة يا مولاي . قال من انت قلت لك .
قال انا ايثار غوين اتيت لاعرف ما آلت اليه الحرب فتعسفت . قال تكذب
يا شقي بل انت تسرق الموتى اشياءهم ثم صوب مسدسه الى صدره فصرخ قائلاً
اعف عني يا مولاي فاقاسمك ما غنمت . فمد الضابط عنقه وقد شام بارقة امل
فقال ويحك وما غنمت . قال هذه الالماسة اولاً . قال ثم ماذا . قال ثم هذا النوط
فتأمله فاذا فيه صورة امرأة فتأثر مالوري لهذه المرأة التي فجعتها صروف الدهر بمن
تحب وود لو ينظر الرجل الذي أخذ منه لعله ينقل الى ذويه وصيته اذا وجده
حيّاً . فالتفت الى الروسي وقال اذا دللتني على صاحب هذا النوط سمحت لك بتفتيش
ما بقي . فسار به الى منعطف واد هناك وأشار الى جثة ضابط في نضارة الحياة فمد
مالوري يده الى جيبه فوجد بطاقة عليها اسم الكنت جاك دي مادراي . فاقبل عليه
فأحس بخفقان في قلبه فصاح قائلاً هو حي . فاستطير فؤاد ايثار روعاً ثم اعطى
الضابط زجاجة فيها شراب ورجع على اعقابيه . فسقى الضابط الجريح جرعة منها فلم
يلبث ان فتح عينيه وتنهد ثم نظر فرأى مالوري امامه فقال لك مني الف شكر
يا مولاي فان رحمة الله ابت الا ان اكفل لولدي القاصر امر مستقبله قبل موتي
فانت فرنسوي مثلي وضابط مثلي أفتريد ان تسمع طلبة مائت . قال بل تعيش ايها
الكنت فان حالتك على ما أرى لا تنذر بسوء . قال بل هي أسوأ مما تظن فاستمعي
قال قل فاني مصغ . فجمع جاك دي مادراي قواه وقال على نحو خمسة اميال من هنا
منزل تسكنه امرأة غضة الشباب تدعى صوفيا ستروسكا كنت على وشك الاقتران
بها لو لم تفرق بيننا الاقدار فاذهب اليها وقل لها اني اوصيها بابني فلتجعله تحت رعايتها
فاذا لم تستطع ذلك فاطلب منها الامانة التي استودعتها اياها وهي اوراق مالية بقيمة

مثنى الف فرنك وسلمها الى محرر المقاولات روبرتال فهو وكلي ويقوم في المهقر . ذلك ما انتظر منك يا مولاي وانا واثق ان السيدة صوفيا ستكفيك كل هذه المشقة . وقد كنت عهدت بسرّي الى جاويش من فرقتي يقال له جاين الا اني رأيتُه سقط في اول هجوم . قال مالوري سيكون ما تريد وساعتني بذلك كانه ولدي ولكن اما من علامة تعرّف السيدة صوفيا اني آت من قبلك . قال بلى فخذ ثم فتش في جيبه فلم يجد شيئاً فقال اوّاه لقد سرق مني . قال له مالوري وقد وضع النوط امام عينيه أهذا ما تفتش عنه يا مولاي . فتهد الجريج ملياً ثم همس بصوت خافت استودعك الله يا حبيبتي صوفيا وفاضت روحه . فوقف مالوري حيناً منحنياً امام هذه الجثة الهامدة تتجاذبه تيارات الافكار وقد رأى انه سحّت له ثروة هي نهزة المحتلس وخلسة المفترس فصمم ان يتدّرع الى الاستيلاء عليها

وبعد ثلاثة ايام استأذن مالوري قائده وسار على جواده وقد بدّل ملابسه العسكرية بثوب قروي حتى بلغ المنزل الذي اشار اليه دي مادراي فدخل على السيدة صوفيا وتلفظ ببلاغها نبأ وفاة الكنت فتحدّرت الدموع على وجنتيها تحدّرت الطلّ على الزهر . ثم سلم اليها النوط وذكر لها وصية الكنت فقالت هي مقضية باذن الله وقد وطنت النفس على ان اخصص هذا الولد اليتيم بمبلغ مثنى الف فرنك من ثروتي فوق ما ترك له والده حتى اذا قضي عليّ قبل ان يبلغ اشدّه يكون في حالة تمكنه من اللحاق بنظرائه واكفائه . ولو انها حدّقت بنظرها في تلك الساعة الى وجه مالوري لذعرت من تغير لونه وشخص بصره عند علمه بوجود هذه الثروة الطائلة تحت طائلة يده فاراد ان يستوثق لنفسه فقال أولم يكتب الكنت وصيته . قالت لا ولكنه كتب قبيل سفره الى وكيله في المهقر رسالة يوضح له فيها رغبته ويذكر له في اثنائها ارقام اوراقه المالية المستودعة عندي . فقال مالوري في نفسه لا بد من اخفاء هذه الرسالة . ثم اردفت كلامها قائلة الا تتكرم يا سيدي بالبقاء هنا الى الغد فانت صديق دي مادراي وموضع سره فلعلّي استشيرك في بعض اموري . قال انا على ما تريد . فخرجت وبقي هو في الغرفة وقد صمم على اتيان فعلته في

تلك الليلة . فلما انتصف الليل اعار اذنًا صاغية فلم يسمع سوى حفيف النسائم فتفقد الخدم فاذا كلهم نيام فنزل الى الحديقة وجمع حزمة من العيدان وصعد بها الى غرفة السيدة صوفيا فراها على نور سراج ضعيف مستلقية على ظهرها فتناول منديلًا وشد يده على انفها ففتحت فاتها فوضع فيه المنديل فانتبهت مذعورة وقبل ان تدرك حقيقة ما الم بها القى احرامًا على وجهها ثم لفها بالخفاف وشد وثاقها شدًا محكمًا واضرم النار . ثم عمد الى الخزانة فاخذ منها علبتين فاحتملها وخرج وكان جواده مسرجًا فامتطاه وسار لا يلوي على شيء حتى بلغ المعسكر ففتحتها فوجد في الاولى اوراقًا مالية بقيمة اربع مئة الف فرنك وفي الثانية جواهر وحلى ثمينة تساوي مثل هذه القيمة فوضع الاوراق والجواهر في صندوقه وجعل العلبتين طعامًا للنار

ولما كانت الحرب قد وضعت اوزارها او كادت استأذن مالوري في العود الى الوطن فاذن له فعاد وفي عزمه ان يجعل البحر بينه وبين جنائته . حتى اذا بلغ منزله علم بموت امرأته في الليلة الواقعة بين ١١ و ١٢ ايلول وهي التي ارتكب الجناية فيها فدعر لهذا الاتفاق الغريب وجعل يضرب اخماسًا لاسداس . وكان يزيد في هواجسه امر التخلص من الجواهر المسروقة اذ كان يستحيل عليه مبيعها في باريس لتيقظ رجال الشحنة فيها فسافر الى لندرا وهناك تمكن من بيعها بقيمة اثني عشر الف ليرة انكليزية . فقبضها في الحال وعاد قاصدًا المهقر فتعرف بمحرر المقاولات وعرفه بنفسه واقام هناك ايامًا تمكن في خلالها من استطلاع ما يريد وعلم بموضع رسالة الكنت . فبينما هما ذات يوم يتنزهان ومعهما نوتي يقال له ينكايل عرض مالوري عليهما نزهة بحرية فاجاباه ثم اخذوا فلكًا وساروا به يتجرون عباب اليم حتى اذا بعدوا عن الشاطئ قليلًا اخترط مالوري خنجره وطعن ينكايل في صدره فلقاه صريعًا ثم رمى نفسه في البحر ودفع الفلك بساعد شديد فانقلب وراح الشيخ والنوتي في قعر اللجة ثم جعل يصرخ ويستغيث واتفق مرور سفينة بالقرب منه فاسرع بجارتها الى انقاذه ولما بلغ البر دخل منزل محرر المقاولات لاخذ ثيابه وصادف من الخدم غفلة فانتزع الرسالة الموهودة فزقها وحسب ان جنائته سوف تخفى بين الماء والنار...

على ساحل نرمنديا بين ديف وتريفيل بلدة حديثة البناء يقال لها هلكات قائمة في اجمل بقعة من بقاع كلفادوس في سفح اكام رملية . وكان في جملة ابنتها دار قديمة العهد مبنية بالآجر قائمة على نشز عال وتعرف بالصومعة . فلما كانت سنة ١٨٥٧ قدمها زائران احدهما رجل يناهز الخامسة والاربعين من العمر قوي البنية والثاني فتى لا يتجاوز الثانية عشرة من سنه وضيء الطلعة بشعر اشقر ينال فرعه كصفه ونظر يشف عن ذكاء وانفة . وكان الفتى دانيال دي مادراي والآخر وليه الجاويش جاين وقد قضى مدة في اسر الروس فلما عاد وعلم بموت ضابطه واحتراق منزل السيدة صوفيا وغرق محرر المقالات ورأى ابن مولاه أصبح بلا نصير ولا ثروة لم يقنط من تتابع هذه النكبات بل أخذ الفتى تحت عنايته ووقف عليه جميع اهتمامه الى ان بلغ السابعة عشرة من عمره واصبح قوي الاسر كامل التهذيب ذا منظر ورواء وكان بين فيلس وهلكات قصر شاهق يخص البارون دي بريكور وهو كهل في الستين من العمر ذو ثروة طائلة وله فتاة اسمها ادماء

كانها صورت من ماء لؤلؤة في كل جارحة من حسناتها قر
عرضت لدانيال في احدى غدواته وروحاته فملكته وخبئت قلبه واستولت على جميع عواطفه ورأت هي في وجهه صباحة وفي اخلاقه رقة مع شرف ائيل وحسب باذخ فاصابها ما اصابه فتعاهدا وتواعدا . وكان والدها يقضي اكثر ايامه في باريس فكانا يصرفان الساعات الطوال يتشاكيان اوعة الصباة ويتساقطان حديثا كأنه الروض الممطور . وباح لها دانيال بهواجسه وخوفه ان يرفض عليه والدها يدها لضيق ذات يده فسكنت باله وعاهدته على ان لا ترضى منه بديلا

عاد البارون دي بريكور من باريس فخلا بابنته وقال لها لقد بلغت يا عزيزتي السن التي تدعوك الى انتخاب كفؤ لك قبل ان تصبحي وقرا على عاتق ابيك وان اميرا من عظماء الروس طلب الي يدك أفلا ترغبين في ان تدعي اميرة .

فاطرت ادماء هنيهة وهي تفكر ثم قالت اما الامارة يا أبتِ فلا رغبة لي فيها واما الزواج فاذا قد تقدمت اليّ بوجوبه فانا لا اخفي عليك اني محبة محبوبة . قال ومن تحبين . قالت فتى لا كالفتيان . قال فما اسمه . قالت دانيال دي مادراي . فلم يكدها هذا الاسم يقرع سمعه حتى هبّ من مكانه مذعوراً ودفعها عنه بعنف واخذ العرق البارد يتحدر على خديه . فارتاعت ادماء لتهمج ايها وجعلت تستعطفه فقال لها لقد نكأت في جرحاً كامناً يا عزيزتي ولكن لا بأس عليك فدعيني الآن وشأني ولا يدخل عليّ احد . فخرجت الفتاة وبقي هو في الغرفة شاخص البصر ثم قال هذه ضرباتك ايها القضاء فان ابنتي تحب الولد اليتيم الذي خنت والده و سلبت ثروته وقتلت انصاره فيا جاك دي مادراي هل حان اوان انتقامك . ثم استولت عليه قشعريرة فجعل يرتعد وتمثل جرائمه امام عينيه فصرخ قائلاً ويل لي انا الخائن . هوذا الضابط دي مادراي ... هوذا روبرتال ويكاييل ... ويلاه هذا خيال السيدة صوفيا ... دخلوا عليّ ... اوثقوني ... ارحموني ارحموني ...

وما زال على مثل تلك الحال الى ان اضاء النهار فعاد الى نفسه وتذكر حديث ابنته وحبها فقال أيمكن ان يخلط دم القاتل بدم المقتول ... ايقضى عليّ ان يبقى هذا الفتى نصب ناظري وادعوه ولدي ... أجل . تلك كفارة اكفر بها عن جرائمك فاردّ لهذا اليتيم على يد ادماء ثروته المساوية واحقق سعادته وسعادة ابنتي في آن واحد . ثم دخلت عليه ادماء فاعلمها برضاها عن زفافها الى دانيال فكتبت اليه تبشّره وتستدعيه وايقنا ان السعادة اصبحت منهما على جبل الذراع

وبينا الجميع هناك يتوقعون زفافاً مشهوداً اذا بعربة فاخرة قد وقفت على باب القصر وخرج منها رجل يقارب الاربعين من العمر فاستقبله البارون بالحفاوة والاكرام ودخل به القصر على الرحب والسعة . فلما كان المساء بعد العشاء وقد خلا البارون بزائره قال له ما اقدمك الينا ايها الامير . قال ذكرت وعدك لي في باريس فحضرت . قال واي وعد تريد . قال وعد الزفاف . قال وعدتك بيد ادماء على شرط قبولها ولكني لما عدت وجدتها قد ارتبطت بحب غيرك فخير لك ان تعدل

الى سواها . قال بل انا اتذرع بوالدها الى نيل رضاها ولا اثني عن عزم عزيمته .
قال لقد ابعدت مذهبك في المزاح ايها الامير وعليه فانا ارفض طلبك رفضاً باتاً .
قال يسوءني ذلك ايها البارون واراني مضطراً الى تذكرك سالف العهد بيننا . قال
وما تعني بذلك وهل تعرفني انت من عهد بعيد . قال عرفتك يوم كنت تدعى
بلقب الضابط مالوري . عرفتك يوم اوحى اليك الكنت دي مادراي آخر كلماته
وهو يجود بنفسه . عرفتك يوم حاولت خنق السيدة صوفيا ستروسكا في سريرها
بعد ان اضرمت النار في منزلها وسرقت مالها ومال اليتيم ويوم كنت ادعى انا
ايقان غوبين ولكني احمد الله على اني تمكنت من تخليصها مخيلة العقل وهي الى الآن
في قصري حية ترزق وكلمة واحدة منها كافية لهلاكك . وكان البارون مالوري
يسمع كل ذلك وهو مشرد البصر لكنه لم يلبث ان انتصب كأنه مدفوع بنافض
كهر بآتي وقال ان من الاسرار ما يقتل صاحبه وهذا واحد منها فيا ايقان غوبين
اذا كنت تعرف صلاة فاتلها لانك ستموت . ثم انتزع سيفين من الجدار وقدم
الى الروسي واحد آمنهما فلم يتحرك . فقال له اذا رفضت المبارزة فاعلم اني اقتلاك كما
تقتل الكلاب . فقال له الروسي غير متأثر ولكني اندرك انك اذا قتلتني لا يلبث
ان يسقط رأسك على النطع ولقد ساء فألك اذ توهمت اني اغرر بنفسي بين يدي
لص قاتل نظيرك فاعلم اذن اني قبل مزايقتي باريس كتبت رسالة مطولة لم اغفل
فيها شيئاً من وقائعك الظلية الذكر وسلمتها الى عمدة صديق لي اثق باخلاصه
وفوضت اليه تسليمها الى الحاكم اذا لم اعد اليه في مدة ثمانية ايام . فاذا اضيف الى
هذه الرسالة شهادة السيدة صوفيا والجاويز جاين فانت ادري بما يكون اذ ذاك
اما الآن فدونك صدري فاضرب ان استطعت . وكان ذلك أكثر مما يستطيع
مالوري احتماله فتلجج لسانه واصطكت اسنانه ووقع مغشياً عليه فقال الروسي في نفسه
هذا خير ما كنت اتوقع ثم أغلق عليه الباب وخرج فدعا ادماء فلما اقبلت انقض
عليها فاخذها بين يديه ووضعها في عربة كانت تنتظره وسار بها في طريق باريس

مرّت خمسة عشر يوماً على ادمآء في باريس وحولها الحراس من خدم الامير وهو كما اجتهد في استرضائها زادت نفوراً واشمئزازاً الى ان عيل صبره واعيته فيها الحيل فباح لها بجنایات ابيها واحدة واحدة وخلص السيدة صوفيا على يده مخلة العقل واحتفاظه الشديد عليها في القيود لا جبار ابيها على الاذعان لرغائبه وقبوله صبراً له واذا ذاك

لم ترَ الا دموع باكية تسفح من مقلة على خد
 كأن تلك الدموع قطرندي يقطر من نرجس على ورد
 وجعل الامير في خدمتها رجلاً روسياً يقال له الكسيس فاستأثرت اليها بوعدا اياه
 باطلاقه من ربة الاستعباد وتمكنت بواسطته من مراسلة خطيبها فذكرت له عزمها
 على الهرب مع الاسيرة الثانية المجنونة واوصته ان يكون على حذر
 فلما كان مساء احد الايام اودأ الكسيس الى ادمآء ان تكون على استعداد حتى
 اذا ارخى الليل سدوله وكان الامير خارج المنزل ثقلاً خنجراً دقيقاً ودخل غرفة
 المجنونة فتهدد حارستها بالقتل ان تكلمت وبعد ان اوثق يديها ورجليها وسد فاهها
 بمنديل دعا ادمآء فاقتربت من المجنونة وفكت قيودها وما زالت تلاطفها وتملقها الى
 ان سكنت اليها فقادهما الكسيس الى العربة فدخلتها واغلقتا رتاها . ثم اقبل
 الحوزي فاستوى على كرسيه وجلس الكسيس الى جانبه حتى اذا خرجوا من القصر
 هجم اثنان على العربة هما دانيال وجاين فوقفاها واخرجا من فيها . وفي اسرع من
 لمح البصر وثب الكسيس الى الارض ووخز احد الجوادين بخنجره فهاج حتى تعذر
 على الحوزي كبح جماحه ولم يلبث ان غابت به العربة في منعطفات الطريق
 فهناً دانيال وجاين ادمآء بخلاصها من يد ذلك الظالم وشكروا جميعهم لالكسيس
 سعيه وساروا الى قصر دي بريكور الذي كان على مقربة من هناك فوجدت ادمآء
 فيه رسالة من ابيها يهبها فيها مليوني فرنك بآنة (دوطة) ويجعل لها الخيار بان تقترن
 بمن تشاء . ولما علم الامير الروسي بفرار سجينيه زار زئير البوة عورضت في طريقها
 الى اشبالها وقال ويل للخائنة فستعلم كيف يكون الانتقام ثم ذهب فاقام عامة نهاره

حول قصر دي بريكور يترصد . وفي المساء كان موعد اجتماع دانيال بوكيل ادماء فخرج مع جابين وراهما الامير فدخل تحت حجاب الظلام والخدم مشغولون عن مراقبته وصعد الى غرفة ادماء في الطبقة العلوية وفي يديه خنجر ومسدس . فذعرت لمرآه وارادت الكلام فقال لها عند اول حركة اوصوت تبدينه فانا قاتلك ثم وضع اسلحته على المائدة وتقدم فاقبل ربط الستائر ويذا هو يحاول ان يشد بها وثاق ادماء اذ حانت منه التفاته فاذا امامه مشهد هائل تشيب له رؤوس الاطفال . رأى المجنونة تتقدم نحوه بقدم ثابتة كأنها القضاء المبرم وهي محمولة الشعر جاحظة العينين وفي ينها ويسراها مسدسه وخنجره فتقلصت شفتاه وارتجفت اعضاؤه وتخاذلت ركبتاه وللحال سمع دوي كأنه الرعد القاصف فتراكض الخدم على صوت الرصاص فوجدوا الامير مطروحاً على الارض جثة لا روح فيها وادماء مغشياً عليها والمجنونة تهقه ضاحكة لا تتقاهم ممن تولى تعذيبها مدة عشر سنوات في القيود والاغلال . وبلغ الامر زعيم الشحنة فحضر ولما تحقق ان غريم المقتول امرأة مجنونة تركها وانصرف وذهب دم الذي كان يدعى في سالف ايامه ايثان غوين هدرا

اما البارون دي بريكور فلما رأى نفسه عاجزاً عن تخليص ابنته مخافة تشهيره والتكيل به هرب الى الهفر وركب منها باخرة كانت متوجهة الى اميركا الا انها لم تكد تبعد به عن الشاطئ حتى لعبت به الوسوس والاهام وثقل عليه ماضيه وتخيل قتيله في تلك اللجة يدعوانه فقال هاء نذا والقي بنفسه في البحر فكان آخر العهد به .

ولما علمت ادماء بمصرع ابيها جرعت عليه جرعا شديداً وأخرت زفافها اياماً صرفتها في العناية بالسيدة صوفيا الى ان ثاب اليها رشدتها وانقضت ايام الحداد فزفت الى الكنت دانيال دي مادراي ولم يبرحاً بين السيدة صوفيا والجاويش جابين مظهر العناية ومجلى السعادة والغبطة ولسان حالها ينشد

ان يسو لنا الماضي فقد سر آت . فاغفر ما مضى بما هو آت .

